

جامعة نايف العربية للعلوم الأمنية

Naif Arab University For Security Sciences

حقوق الإنسان في صحيفة المدينة

أ.د. كامل الشريف

٢٠٠١م

حقوق الإنسان في صحيفة المدينة

أ.د. كامـــــل الشريـــــف

حقوق الإنسان في صحيفة المدينة

مقدمــــــة :

يصعب الحديث عن حقوق الإنسان في صحيفة المدينة بمعزل عن حقوق الإنسان في الشريعة الإسلامية بصورة عامة، وذلك لاعتبارات كثيرة أهمها أن صدور هذه الوثيقة قد زامل إنشاء الدولة الإسلامية كتجسيد عملي لتلك الشريعة بكل ما تشتمل عليه من القيم والمبادئ، كما أن روح الصحيفة ـ بهذا المعنى ـ قد استمرت تعمل عملها في الكيان الإسلامي على مر القرون، وبعد أن تجاوزت الدولة أسوار المدينة المنورة، وتخوم الجزيرة العربية لتضم تحت جناحيها شعوبا وحضارات شتى غطت معظم مساحة العالم المعروف حينذاك، وسوف تجد أن روح صحيفة المدينة قد تخللت وثائق ومعاهدات متباعدة في الزمان والمكان كالعهدة العمريّة التي أبرمها عمر بن الخطاب مع المسيحيين في القدس (٦٣٨) أو معاهدة محمد الفاتح مع البيزنطيين (١٤٥٣)[1].

مما ينفي ما ذهب إليه بعض المستشرقين من أن صحيفة المدينة كانت مجرد حركة سياسية مرحلية لكسب مودة اليهود للدعوة الجديدة كما كانت الصلاة نحو القدس، ولما يئس الرسول عليه الصلاة والسلام من اليهود

---

(١) عند فتح القسطنطينية، أعطى محمد الثاني إلى البطريك جيماندوس سكولاريوس عهداً قال فيه: فلتبق على رأس طائفتك بسلام ولتحرسك السماء، ولك صداقتي في كل الظروف، ولك كل الحقوق والامتيازات التي كانت لاسلافك «أنطون فتالي» الوضع القانوني لغير المسلمين في البلاد الإسلامية.

غسل يده من الصحيفة، ونقل القبلة إلى البيت الحرام وغير ذلك من ترهات تنطلق من رغبة حاقدة هي نفي الوحي الإلهي، وإلقاء الشبهة على حقيقة القرآن، ووضع رسول الإسلام في مصاف السياسيين الانتهازيين[1].

ومما ينفي هذا الزعم أيضا أن صحيفة المدينة في أكثر ـ من موضع ـ قد أقرت اليهود على دينهم، وأكدت ضمان الحرية الدينية لكل الأطراف، وبذلك تكون قد أعطت اليهود أسباباً مضاعفة للتمسك بدينهم، ولو كان النبي يضمر إرغامهم على الإسلام لما فعل ذلك. وسوف نجد ذلك واضحا عند استعراض بنود الصحيفة.

إن موقف الإسلام من قصة الحرية الدينية يشكل أحد المبادئ الرئيسة في المنهج الإسلامي في مثل قول الله عز وجل: ﴿ **لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ** .. ﴿٢٥٦﴾ ﴾ (البقرة، ٢٥٦). أما بالنسبة لليهود على وجه التحديد فقد دعاهم الإسلام للتمسك بالتوراة الصحيحة وفهمها حق الفهم باعتبار ذلك الطريقة المثلى للتعرف على الحق والإيمان برسالة محمد ﷺ فقال: ﴿ **إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ** .. ﴿٤٤﴾ ﴾ (المائدة، ٤٤) وقال: ﴿ **وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ** .. ﴿٤٣﴾ ﴾ (المائدة، ٤٣)، وقال أيضا ﴿ ... **قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ** ﴿٩٣﴾ ﴾ (آل عمران، ٩٣)، ووقف القرآن موقف الدفاع عن موسى عليه الصلاة والسلام فورد ذكره في الكتاب الكريم مائة وعشرين مرة وقال دفاعا عنه ﴿ ... **لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا** ﴿٦٩﴾ ﴾ (الأحزاب، ٦٩).

لقد كان النبي عليه الصلاة والسلام ـ بفطرته السوية ـ عدوا للظلم، نصيرا للضعفاء، حتى قبل أن تنزل عليه الرسالة ويقع عليه التكليف الإلهي، كيف لا، وقد صنعه الله على عينه واعده للمهمة العظمى « الله أعلم حيث

يجعل رسالته» (٦/ ١٢٤) وكان يؤثر الدعوة لدين الله ومكارم الأخلاق بالحكمة والموعظة الحسنة، ولم يلجأ للحرب إلا حين أصبحت الخيار الأوحد لكبح العدوان وللدفاع عن العقيدة. لقد شهد مع أعمامه وهو صبي حلفا عقدته قبائل قريش لمنع الظلم ونصرة الغريب وهو حلف الفضول، وبقي يذكر هذا الحلف ويثني عليه ويقول «لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفاً ما أحب أن لي به حمر النعم، ولو أدعي به في الإسلام لأجبت»، وحين تفاقمت الأزمة بينه وبين قريش وبلغت ذروتها يوم الحديبية آثر أن يعود للمدينة على أن يقاتل ويسفك الدماء، وكثيرا ما يقع بعض المستشرقين في الخطأ ويجاريهم بعض المتحمسين المسلمين حين يبحثون في نتائج هذه الأحداث وما أدت إليه من نجاح في مسيرة الدعوة، ويردونها لحنكة الرسول السياسية، وينسون في غمرة الهوى أو الحماس أنهم يبحثون في سيرة نبي، يضع الأساس لمرتكزات الدين ومبادئ الرسالة. لقد كان النبي في كل هذه التطورات، حريصا على الحياة الإنسانية، حريصا على الدم البشري أن يراق دون ضرورة، وها هو يقول يوم الحديبية «والله لا تدعوني قريش اليوم إلى خطة يسألونني فيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها» وحين تطورت الأحداث وجاء فتح مكة دخلها حاني الرأس على ناقته وهو يقول « إن الأجر أجر الآخرة»، ثم يوجه خطابه إلى أعداء الأمس «ما تظنون أني فاعل بكم، قالوا خيرا، أخ كريم وابن أخ كريم : قال أذهبوا فأنتم الطلقاء»!

على أن نقض اليهود لصحيفة المدينة وما تسبب فيه من معارك لم يبطل مفعول الصحيفة والالتزام بها من جانب المسلمين في معاملة أهل الأديان الأخرى ومنهم اليهود سواء في الحجاز أو غيرها كما اعترفت الموسوعة اليهودية نفسها حين قالت إن محاربة محمد لبعض اليهود في المدينة لم

يكن بدافع العداء للدين اليهودي، وإنما لاعتبارات استراتيجية ضاغطة [١]، أو كما قال مونتجمري وات في كتابه القيم محمد في المدينة «سيكون من الطريف أن يتخيل الإنسان العالم لو أن اليهود اتفقوا مع محمد بدل معارضته، فقد كان من السهل عليهم أن ينالوا شروطا حسنة جدا، بما في ذلك الحرية الدينية الكاملة، وحينذاك كان بوسع اليهود أن يكونوا شركاء في الامبراطورية، وعبر الكاتب عن حسرته قائلا « كيف سيكون وجه العالم الآن متغيرا لو حدث ذلك ؟»، ومضى الكاتب يقول : «انه لم يكن من الضروري لليهود أن يمضوا في السخرية من الإسلام كما فعلوا، ولكن عندما قاموا برفض النبي ودعوته كان عليهم أن يبرروا ذلك لأنفسهم على الأقل. لأن هذا الرفض وما تلاه من أعمال عدائية كان يشكل تهديدا حاسما للتجربة الإسلامية لا يمكن تجاهله، وبذلك أنطلق مسار الأحداث المؤسفة التي جاءت بعد ذلك [٢].

مناخ المدينة قبل الصحيفة

جاءت هجرة النبي ﷺ من مكة إلى يثرب كنتيجة مباشرة لحملة الاضطهاد التي شنتها قريش عليه وعلى أتباعه وحتى أصبح واضحا أن مكة ليست التربة الملائمة لانطلاق الدعوة، ذلك لأن كيانها الاجتماعي والاقتصادي، ومكانتها في الجزيرة قد ارتبطت كلها بالوثنية التي تركزت حول الكعبة، التي يحج لها قبائل العرب من أطراف الجزيرة، ومع هذا

---

(١) الموسوعة اليهودية.

(2) Mohammed at Medina W. Montomery WATT.

الحج تنتعش التجارة ويتحقق الرفاه، وتتأكد زعامة قريش في الجزيرة كسادة مكة وسدنة البيت العتيق. وكان التنافس بين القبائل على الرئاسة والأمجاد على أشده وخصوصا بين بطون قريش، فلما ظهر الرسول من بني هاشم نظروا للأمر من زاوية نفعية قبلية أعمتهم عن أنوار الدعوة واستيعاب حقائقها الكبيرة، ويدل ذلك قول أبي جهل « تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف، أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تحاذينا على الركب، وكنا كفرسي رهان، قالوا منا نبي يأتيه الوحي من السماء، فمتى ندرك مثل هذه، والله لا نؤمن به أبدا ولا نصدقه » لقد أجمعت قريش على رفض الدعوة ـ عدا قلة من أبنائها استجابة لدعوة الحق، وحين لم ينجح الحصار والتعذيب كما لم ينجح الإغراء والتلويح بمغانم الدنيا بدأ الحصار والاضطهاد والتعذيب، وكان لا بد أن يبحث رجال الدعوة لأنفسهم عن بلاد أخرى يتنفسون فيها الهواء الطلق، ويضعون عقيدتهم على محك التجربة، فكانت هجرة فريق منهم للحبشه حيث يوجد ملك لا يظلم عنده أحد « كما حملت السيرة وصف النجاشي في ذلك الزمان.

وفي تلك المرحلة بدأ الرسول ﷺ ينتهز المواسم وخصوصا الحج ليعرض نفسه على القبائل العربية التي تجئ لإحياء دعوة إبراهيم بشعائر وثنية تناقض دعوة إبراهيم، ولم تكن المهمة سهلة فقد كانت عيون قريش بالمرصاد، وكان خطباؤها وشعراؤها مستنفرين لمعارضة الرسول ﷺ، ونقض تأثيره في الوفود، لكن إيمانه بالحق، ومثابرته عليه لم تلبث أن أثمرت مع وفود يثرب مما أدى للعقبة الصغرى وبيعة النساء، ثم العقبة الكبرى، والتمهيد لهجرتهe، مما تزخر به كتب السيرة النبوية الطاهرة. على أن هناك عنصرا يستحق التسجيل عند الحديث عن بيعة العقبة الثانية (عقب الحرب)

وهو مشاركة النساء في تبعات الدعوة الإسلامية من البداية، وكانت إحدى النساء هي نسيبة بنت كعب بن عمرو بن عوف (أم عمارة) التي قاتلت مع رسول الله ﷺ في أحد، وقال في حقها «ما التفت يمنة أو يسرة إلا وجدتها تقاتل دوني»، وقد حاربت أم عمارة مسيلمة الكذاب دفاعا عن الإسلام، وثأراً لابنها الذي قتله مسيلمة وهو يقطع أعضاءه عضواً عضواً لينتزع منه كلمة الكفر.

كانت يثرب منطقة لقاء وتمازج بين سلالات قبلية ودينية مختلفة، فهناك القبائل العربية التي قطنت الجزيرة منذ فجر التاريخ مثل وائل وبني عوف وغيرهم[1] ومن لحق بهم من بني العمومة الذين جاءوا من الجنوب بعد انهيار سد مأرب واضمحلال الدولة الحميرية، وتعاقب الغزوات الحبشية على اليمن، وقد كانت العلاقات بين القبائل العربية في يثرب وخصوصا بين القبيلتين الرئيسيتين الأوس والخزرج شأن الجاهلية في الجزيرة العربية برمتها، علاقة عداوة وقتال وثارات دائمة وصلت قمتها في يوم بعاث حول عام ٦١٧ الميلادي حيث انتصر الأوس على الخزرج، وبالرغم من هدنة قلقة بين الفريقين، إلا أن ذكريات هذه المعارك بقيت حية كالنار تحت الرماد وسجلها الشعراء من الفريقين، واستغلها اليهود أسوأ استغلال حتى بعد أن استقر الإسلام في المدينة، ويلفت النظر هنا أن اليهود قد قسموا أنفسهم بين القبائل العربية المتحاربة مما يطرح السؤال الكبير عما إذا كان اليهود قد راعهم تنامي الأغلبية العربية، ومارسوا أسلوبهم التقليدي في تأجيج الفتن، فعملوا على إشعال نيران الحرب بين العرب حتى يضمنوا بقاء سيطرتهم على الزراعة والصناعة في يثرب، ولم تتوقف النزعة اليهودية

(1) Encyclopaedia of Islam.

لإشعال الفتنة حتى بعد أن استقر الأمر للإسلام ودخل الناس في دين الله أفواجا، فقد حاول أحد زعماء اليهود وهو شماس بن قيس أن يثير الفتنة بين قبائل العرب فأخذ يذكرهم بأحداث يوم بعاث حتى قاموا يتحسسون سيوفهم ويستعدون للقتال إلى أن تدخل الرسول ﷺ في الأمر يذكرهم بوشائج الإيمان والأخوة قائلا لهم «الله، الله، أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم، بعد أن هداكم الله للإسلام، وأكرمكم به، وقطع عنكم أمر الجاهلية، وألف بين قلوبكم» وكان أهل يثرب قبل هجرة النبي ﷺ ـ شأنهم في ذلك شأن قبائل الجزيرة ـ يعبدون الأصنام الصم، وأبرزهم «مناة» الذي اختلفت الآراء في أصله وتسميته وقد يكون أحد الآلهة اليونانية الوثنية التي راجت في الشام في ذلك الحين وجلبتها قوافل التجارة معها بعد أن حرفت أسماءها[1].

أما بالنسبة للوجود اليهودي في يثرب فان الغموض يحيط به وتذهب الآراء فيه مذاهب شتى، والأرجح أنهم جاءوا في أمواج مختلفة وفي عصور متباعدة تبعاً للتقلبات التي مرت بهم، ويميل بعض المؤرخين إلى تحديد مرحلتين بارزتين هما دخول نبوخذ نصر إلى فلسطين (٥٨٦) قبل الميلاد وهزيمة باركوشبا على يد الرومان عام ١٣٢ قبل الميلاد.

ولما كان اليهود أكثر دراية بفنون التجارة والزراعة بسبب اتصالهم بحضارات البحر الأبيض المتوسط، فقد احتكروا تجارة المدينة واستولوا على

---

(١) يرجع محمد أسد في تعليقه على الآية الكريمة ﴿أرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى﴾ إن اللات هي «ليتو» أحد زوجات الإله الوثني زيوس، وإنها كانت تشكل معالعزى ومناة ثالوثاً أطلق عليه «بنات الله»، ومن السهل أن يجد الإنسان تشابهاً واضحاً بين أصنام العرب وأوثان اليونان القديمة.

الأراضي الخصبة، وجاءت فترات أصبحوا فيها سادة المدينة، وباتوا ينظرون للجاهليين العرب نظرة دونية، حتى أن أحد أمرائهم وهو «فايتون» حاول فرض تقاليد مرذولة كانت شائعة في أوروبا في تلك المرحلة، فثارت ثائرة العرب واستردوا سيادتهم بحد السيف، ومع أن اليهود بقوا ينتظمون في تحالفات مع القبائل العربية، إلا أن العلاقات بقيت متوترة يسودها السخرية والتربص، وكثيرا ما كان اليهود يتوعدون المشركين العرب بقرب ظهور نبي يقاتلونهم تحت لوائه ويدمرونهم دمار عاد وإرم! وقد سجل القرآن الكريم بعض هذه المناقشات في قوله تعالى: ﴿ **وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ** ﴿٨٩﴾ ﴾ (البقرة، ٨٩). لقد كان يهود يثرب يشيرونَ لما جاء في التوراة سفر الثنية: «يقيم لك الرب نبياً من وسطك من أخوتك مثلي له تسمعون». وفي فقرات تالية تقول التوراة قال لي الرب: «قد أحسنوا في ما تكلموا، أقيم لهم نبيا من وسط إخوتهم مثلك، وأجعل كلامي في فمه فيكلمهم بكل ما أوصيه به» (١٩). وهناك عبارات أخرى في التوراة تشير لهذه الحقيقة مما حدا ببعض علماء اليهود متابعة النبيﷺ ومنهم عبد الله بن سلام زعيم يني قينقاع، ولقد أورد ابن هشام قصة معبرة عن إسلامه توضح مكابرة اليهود وعنادهم، وانقيادهم الأعمى لأهوائهم، فقد أن ذكر أن عبد الله بن سلام طلب من النبي أن يسأل اليهود عن سيرته ومكانته فيهم، فأخذوا يمدحونه، ويثنون عليه، فلما خرج عليهم معلنا إسلامه، قاموا يذمونه ويلحقون به شر التهم!. كانت هذه حالة المجتمع في يثرب قبل قدوم النبي عليه الصلاة والسلام، هدنة هشه بين القبائل العربية تهدد بالاشتعال لأتفه الأسباب، وكراهية متبادلة بين العرب واليهود لا يمنعها من الانفجار سوى التوازن الحرج بين التحالفات القبلية والمصالح

الاقتصادية، وقد حكم هذا الواقع نظرة الفريقين للنبي العربي الجديد، « بينما كان العرب على استعداد للقبول بالشخص كانوا يرفضون رسالته، أما اليهود فكانوا يقبلون الرسالة ولكن يرفضون صاحبها العربي»[1] ولم يكونوا على استعداد لقبول نبي يأتي من خارج «الشعب المختار» على زعمهم.

نص صحيفة المدينة

كان أول أهداف السياسة النبوية التعفية على العداوات القديمة وكسر حلقات الحروب والنارات، وإقامة مجتمع جديد على أسس من الإيمان والاخوة في الله، فعقد المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، ثم مضى في نفس الاتجاه فأصدر الصحيفة المشهورة لتحقيق إطار اشمل يضع الأساس لأخوة عالمية تحقق أمن الإنسان وكرامته بصرف النظر عن دينه أو سلالته، أو انتمائه القبلي.

لقد أورد ابن هشام في السيرة النبوية نص الصحيفة كما يلي : لقد أورد ابن هشام في السيرة النبوية نص الصحيفة كما يلي :

هذا كتاب من محمد النبي ﷺ بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب، ومن تبعهم فلحق بهم، وجاهد معهم، انهم أمة واحدة من دون الناس، المهاجرون من قريش على ربعتهم «حالهم» يتعاقلون بينهم، وهم يفدون عانيهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وبنو عوف على ربعتهم، يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين

---

(1) MUHAMMED, his life based on the earlier sources, martin Lings.

المؤمنين، وبنو ساعدة على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين. وبنو الحارث على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

وتمضي الصحيفة في تعداد القبائل العربية الأخرى، بنو النجار، وبنو عمرو بن عوف، وبنو النبيت، وبنو الأوس، ونشدد في كل مرة أن كل طائفة على ربعتها، وأنها تتعاقل معاقلها الأولى، وأن كل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وأن المؤمنين «جميعاً» لا يتركون مفرحا بينهم أن يعطوه بالمعروف في فداء أو عقل، قال ابن هشام المفرح، المثقل بالدين والكثير العيال». ثم ينتقل ابن هشام إلى الدائرة الأوسع في صحيفة المدينة ليقول :

وان لا يحالف مؤمن مولى مؤمن دونه، وأن المؤمنين المتقين على من بغى منهم، أو ابتغى دسيعة ظلم «أي ظلم عظيم»، أو إثم، أو عدوان، أو فساد بين المؤمنين، وان أيديهم عليه جميعاً، ولو كان ولد أحدهم، ولا يقتل مؤمن مؤمناً في كافر، ولا ينصر كافراً على مؤمن، وان ذمة الله واحدة، يجير عليه أدناهم، وأن المؤمنين بعضهم موالي بعض دون الناس، وانه من تبعنا من يهود فان له النصر والأسوة، غير مظلومين ولا متناصرين عليهم، وان سلم المؤمنين واحدة، لا يسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله، إلا على سواء وعدل بينهم، وان كل غازية غزت معنا يعقب بعضها بعضاً، وان المؤمنين يبيء «ينوب» بعضهم على بعض بما نال دماءهم في سبيل الله، وان المؤمنين المتقين على أحسن هدى وأقومه، وانه لا يجير مشرك مالا لقريش ولا نفساً، ولا يحول دونه على مؤمن، وانه من اعتبط مؤمناً «قتل» قتلاً عن بينة، فانه قود به إلا أن يرضى ولي المقتول، وان المؤمنين

عليه كافة، ولا يحل لهم إلا قيام عليه، وانه لمؤمن أقر بما في هذه الصحيفة، وآمن بالله واليوم الآخر أن ينصر محدثاً ولا يؤوبه، وأنه من نصره أو آواه، فان عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة، ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل، وأنكم مهما اختلفتم فيه من شئ، فان مرده إلى الله عز وجل، والى محمد ﷺ، وان اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين، وان يهود بني عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم، مواليهم وأنفسهم، إلا من ظلم وأثم، فانه لا يوتغ «يهلك» إلا نفسه، وأهل بيته، وان ليهود بني النجار مثل ما ليهود بني عوف، واستمرت الصحيفة تحدد الحقوق والواجبات على هذه الوتيرة، ليهود بني الحارث، ويهود بني ساعدة، ويهود بني جشم، ويهود بني الأوس، ويهود بني ثعلبة، ويهود بني الشطيبة. وأن البر دون الإثم، وان موالي ثعلبة كأنفسهم، وان بطانتة «أهل بيته» كأنفسهم، وانه لا يخرج منهم أحد إلا بإذن محمد ﷺ، وانه لا ينحجز على ثار جرح «أي أن حق الثار محفوظ إلا أن يعفو المجروح أو وليه». وأن من فتك فبنفسه فتك، وأهل بيته، إلا من ظلم، وان الله على أبر هذا «أي على الرضا به» وان على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم، وان بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وان بينهم النصح والنصيحة، والبر دون الإثم، وانه لم يأثم امرؤ بحليفه، وان النصر للمظلوم، وان اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين، وان يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة، وان الجار كالنفس غير مضار ولا آثم، وانه لا تجار حرمة إلا بإذن أهلها، وانه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده، فان مرده إلى الله عز وجل، والى محمد رسول الله ﷺ، وان الله على أتقى ما في هذه الصحيفة وأبره «أي أن الله والمؤمنين على الرضا به» وأنه لا تجار قريش ولا من نصرها، وان بينهم النصر على من دهم يثرب،

وإذا دعوا إلى صلح يصالحونه ويلبسونه، فانهم يصالحونه ويلبسونه، وانهم إذا دعوا إلى مثل ذلك فانه لهم على المؤمنين، إلا من حارب في الدين، على كل أناس حصتهم من جانبهم الذي قبلهم، وان يهود الأوس، مواليهم وأنفسهم، على مثل ما لأهل هذه الصحيفة مع البر المحض، من أهل هذه الصحيفة..

وزاد ابن هشام في روايته قائلاً : ـوان البر دون الإثم، لا يكسب كاسب إلا على نفسه، وان الله على أصدق ما في هذه الصحيفة وأبره، وانه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم وآثم، وانه من خرج آمن، ومن قعد آمن بالمدينة إلا من ظلم وأثم، وانه الله جار لمن بر واتقى، ومحمد رسول الله ﷺ « وزاد ابن هشام في روايته قائلاً : وان البر دون الإثم، لا يكسب كاسب إلا على نفسه، وان الله على أصدق ما في هذه الصحيفة وأبره، وانه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم وآثم، وانه من خرج آمن، ومن قعد آمن بالمدينة إلا من ظلم وأثم، وانه الله جار لمن بر واتقى، ومحمد رسول الله ﷺ» .

جاءت صحيفة المدينة تعكس روح الشريعة الإسلامية في نظرتها المتوازنة للإنسان فهي تكفل له حقوقه في حياة كريمة آمنة داخل مجتمع إنساني فاضل مستقر كما تحدد عليه واجباته في صيانة هذا المجتمع والدفاع عن القيم التي يرتكز عليها، وهذا النموذج هو الذي ضمن للمجتمع الإسلامي قوته وبقاءه حتى بعد أن نقض اليهود العهد وتمردوا على الوثيقة التي ارتضوها، وبعد أن اتسعت رقعة الدولة وضمت في تخومها أدياناً وسلالات شتى، ولعل هذا النموذج المتوازن بين الحقوق والواجبات هو ما يستطيع المسلمون تقديمه لعالم اليوم في وقت يغلب فيه الشطط والتطرف،

كما يغلب فيه الظلم والانتهازية والكيل بمكيالين عند الحديث عن حقوق الإنسان. ذلك أن حقوق الإنسان في الإسلام ترتبط بواجباته ولا تنعزل عنها، لان ضمان الحقوق وحدها دون الواجبات تجعل من الإنسان مخلوقاً أنانياً، نفعياً، جشعاً يعيش عالة على المجتمع ولا يبالي بحقوق الآخرين طالما استطاع أن يحقق مصالحه، ويشبع شهواته، بالحق أو الباطل، والقرآن الكريم يصور حالة من حالات الانحراف الإنساني التي يحكمها الجشع وتحركها الأثرة وهي حالة يمكن تطبيقها على حالات كثيرة فيقول: ﴿**وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾ أَلا يَظُنُّ أُوْلَئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦﴾**﴾ (المطففين، ١ ـ ٦) وفي موضع آخر يقول القرآن الكريم: ﴿**وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾**﴾ (النور، ٤٨ ـ ٤٩)، وكل هذه الحالات صغيرها وكبيرها يسيطر عليها دافع واحد هو الأنانية، وحب الذات، والاستهتار بحقوق الآخرين.

ولقد مر بنا وصف للحالة القلقة التي كانت سائدة في يثرب داخل القبائل العربية وجراح يوم بعاث لا تزال طرية، والناس يتذاكرونها في أهازيج وأشعار، ويتوعد بعضهم بعضاً بالانتقام، وكذلك بينهم وبين القبائل اليهودية التي اغتصبت أرضهم وانحدرت بهم إلى مستوى الخدم والعبيد، وكلما هدأت نفوس العرب والتأمت جراحهم قام اليهود بإشعال الفتن بينهم حتى لا يقر لهم قرار، أو يستقيم لهم صف، وكانت هذه الحالة القلقة المتوترة هي التي واجهت النبي ﷺ، وهو يبدأ خطته في إقامة مجتمع إنساني يخيم عليه الإخاء والثقة، ليكون نموذجاً للمجتمع العالمي الذي وجهه ربه إليه في مثل قوله: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا**﴾ (سبأ، ٢٨). وفي

مـثـل قـولـه : ﴿ الَر كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ .. ﴿١﴾ ﴾ (إبراهيم/ ١)، وفي الطريق لتحقيق هذه الغاية قام الرسول ﷺ بإبرام المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار ـ كما ذكرنا ـ حتى يضع الجميع خارج إطار القبلية الضيقة، ويصهر ولاءهم ومشاعرهم في بوتقة الإسلام والإيمان، ومن ذات المنطلق ـ أيضا ـ رسم الدائرة الأوسع للتعاون بين المسلمين واليهود، حتى القبائل المشركة وحدت لها مكاناً في صحيفة المدينة[1].

فالعدل، والأمن، والحماية، والرخاء حقوق مقررة للمخلوقات لا يحق لأحد أن ينازعهم فيها، وعليهم أن يدعوا للحق ويهدي بعضهم بعضاً إليه بالكلم الطيب، والنموذج الحسن، والهداية التي يقذفها الله في قلوب عباده، دون قسر أو إكراه، التزاماً لأمر الله القائل : ﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ .. ﴿٢٥٦﴾ ﴾(البقرة، ٢٥٦)، والقائل : ﴿ مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاغُ .. ﴿٩٩﴾ ﴾ (المائدة، ٩٩).

لقد أوردنا النص الكامل لصحيفة المدينة، كما أوردها ابن هشام، وكما جاءت في الصحاح الأخرى بتعديلات طفيفة، ونستعرض الآن أهم الحقوق التي اشتملت عليها :

أولاً : حقوق اجتماعية عامة

١ ـ لقد أرسى الرسول ﷺ قواعد مجتمع واحد متضامن يضمن العدل والحماية لأفراده، ويشترط عليهم التشاور بينهم في ضمان الاستقرار، ولا يحق لأحد أن ينفرد بقرار الحرب التي تهدد أمن ذلك المجتمع.

٢ ـ إن المحور الرئيسي في الوثيقة أنها جاءت ضماناً لعدم الظلم، أو البغي، سواء بين الأطراف المتعاقدة عليها، أو بين من ينزل في دارهم من

(١) ابن القيم، اقتباس الشيخ محمد أبو زهرة، خاتم النبيين.

الغرباء، مما يذكرنا بحلف الفضول وحنين الرسول e إليه، ووعده بالاستجابة له في الإسلام، كما استجاب إليه قبل الرسالة.

٣ـ تعرضت الصحيفة إلى التحالف الوثيق ضد العدوان الخارجي، وحددت أسلوب المشاركة العادلة بين أطراف الصحيفة، ذلك أن طرفاً واحداً لا يستطيع تحمل التبعات الباهظة لمقاومة العدوان، كما أن من شأن هذا التحالف القوي أن يرهب المعتدين، ويقنعهم بالحفاظ على السلام والاستقرار. كما يقول القرآن الكريم: ﴿ **وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ..** ﴿٦٠﴾ ﴾(الأنفال، ٦٠).

٤ ـ يتضح من الصحيفة أن التحالف فيها ذو طبيعة وقائية أو دفاعية وأنها لا تعكس أي مضمون هجومي أو عدواني، مما يبدي بوضوح المنهج المحمدي في التمسك بالسلم وتحاشي مزالق الحرب كلما أمكن ذلك واعتماد أسلوب البلاغ، والإرشاد، والدعوة بالتي هي أحسن. مما يحمل الطمأنينة لأهل الصحيفة في سلم طويل ثابت الأركان.

٥ ـ تضع الصحيفة في قمة أهدافها التصدي للظلم، والغبن والعدوان، سواء بين أفرادها أو الضيف النازل عليهم، وهم يد واحدة على المعتدي حتى لو كان قريباً أو «ابناً لواحد منهم» وتقر مبدأ المساواة في الحقوق والواجبات، وترفض المحاباة، والتحيز والتفاضل على أساس المركز أو القرابة.

٦ ـ من الواضح ـ ضمناً ـ أن الصحيفة تؤكد حق الأفراد سواء العرب أو اليهود في الحرية والأمن الاجتماعي، وترسي قواعد التكافل لاحتضان الفقير وحمايته، والتعاون لحمل الأعباء الطارئة التي تتعرض لها

الطبقات المحرومة، ومن الممكن أن تتبنى على هذا الأساس إصلاحات اجتماعية واسعة لمكافحة الفقر والجوع والمرض.

٧ـ إن السلام العام الذي تحققه الصحيفة يضمن لسكان المدينة على اختلاف أديانهم، وأصولهم، وانتماءاتهم القبلية، أن يمارسوا الإعمار، وينهضوا بالتجارة والزراعة، كما يضمن الأمن لطرق القوافل التي تمر بيثرب من اليمن وأطراف الجزيرة العربية في طريقها إلى الشام، مما يشيع الرخاء والازدهار لشعوب المنطقة المحيطة بجزيرة العرب، وهنا يبدو البعد العالمي للصحيفة.

ثانياً : الحقوق والواجبات الخاصة

تنعكس الحقوق العامة ـ تلقائيا ـ على الجماعات والأفراد كما تنعكس الواجبات أيضا، لأن المجتمع في نهاية المطاف هو مجموع الأفراد والجماعات التي يتكون منها، وينالهم ما يناله من خير ويقع عليهم ما يقع عليه من شر. ومع ذلك جاءت الصحيفة تراعي حقوقاً وواجبات خاصة لأطراف الوثيقة وخصوصاً لليهود، ويمكن تلخيصها فيما يلي:

١ ـ لقد أصبح اليهود جزءاً لا يتجزأ من النسيج الاجتماعي العام يجري عليهم ما يجري على سواهم، فلم يعودوا تلك الفئة المنبوذة المحتقرة كما كان حالهم في الدولة الرومانية، وورثتها من الدول الأوروبية حتى عهد قريب.

٢ ـ أصبح اليهود أنداداً لغيرهم من سكان يثرب يمارسون حياتهم الطبيعية أمام شريعة الله، وليسوا بحاجة لأن يتميزوا بشارات تنتقص من كرامتهم أو يسكنوا في أحياء خاصة أو «جيتو» بعزلهم عن غيرهم. كما كان حالهم في الدول الأخرى حتى منتصف القرن العشرين.

٣ ـ تضمن الصحيفة لليهود كما تضمن لغيرهم حرية الدين والاعتقاد، والمجتمع مسؤول عن المحافظة على أماكن العبادة الخاصة بهم وعن إقامة شعائرهم، ولا يحق لأحد إكراههم على دين آخر، ويلاحظ أن هذا الضمان أعطى لهم في الوقت الذي كانوا لا يزالون يرفضون فيه الاعتراف بالرسول ورسالته.

٤ ـ في مقابل ذلك تشترط الصحيفة على اليهود ألا يحالفوا عدوا للرسول أو أطراف الوثيقة، وألا يعينوه بأي صورة من الصور إذا حاول الهجوم على المدينة وترويع سكانها. وواضح أن هذا الشرط كان في مصلحة اليهود لأن أي عدوان خارجي من شأنه أن يهدد اليهود أولا كأقلية دينية كما يهدد المكتسبات التي تحققت لهم لأول مرة في التاريخ.

٥ ـ يلاحظ أن الصحيفة ثبتت تحالفات اليهود مع القبائل العربية وزادتها متانة حين أصبح الرسول والأنصار شهوداً عليها مؤيدين لها، مما يؤكد اندماج اليهود في البيئة الإسلامية الجديدة، مع حفاظهم على ثقافتهم وتقاليدهم وكيانهم الخاص.

٦ ـ لقد ضمنت الصحيفة لليهود كل المكتسبات التي تحققت لهم بما فيها تلك المكتسبات التي أخذوها بالحيلة والغدر، حين استولوا على أجود أراضي المدينة، وسيطروا على اقتصادها. باعتبار أن حالة الأمن والاستقرار سوف تمنح العرب فرصاً واسعة لإدراك ما فاتهم من التجارة والزراعة، دون أن يزاحموا اليهود فيما تحقق لهم.

٧ ـ بمقتضى بنود الصحيفة أصبح اليهود شركاء في الدفاع عن يثرب وعن جميع سكانها العرب أفراداً وقبائل، وهذه المشاركة ـ بطبيعتها الدفاعية ـ لا تعرضهم لأخطار ذات بال، بينما تجعلهم شركاء متساويين في

الحقوق المعنوية والمادية، كما تمنحهم العزة والكرامة التي يشعر بها المواطن الذي يدافع عن وطنه.

٨ ـ لقد حافظت صحيفة المدينة على كيان القبيلة والعشيرة بالنسبة للعرب واليهود وان كانت قد وجهت طاقاتها نحو المبادئ والمثل العليا كإحقاق الحق، ونصرة الضعيف وهي النظرة الإسلامية المعتدلة التي لخصها قول الله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ..** ﴿١٣﴾ ﴾ (الحجرات، ١٣). ذلك أن انتماء الإنسان إلى عشيرة أو قبيلة يجعله حريصاً على سمعتها وشرفها، كما أنه يجد لديها الناصح والرادع من الزيغ والانحراف.

٩ ـ من الواضح أن أي إخلال بشروط الصحيفة أو تنكر لمبادئها.. يجلب شروراً على يثرب وسكانها ويهدد حياتهم واستقرارهم ـ بمن فيهم اليهود ـ ويضيع الآمال الضخمة التي يعلقها أهل يثرب على نجاح الصحيفة، لذلك تحتم الصحيفة أن يكون كل الأطراف جهة واحدة ضد الغادر، وضرورة أن يلقى جزاءه الحاسم.

١٠ ـ لقد اعترفت الصحيفة إن اليهود طائفة من المؤمنين، وانهم الكفة المقابلة للمسلمين في هذه المعاهدة، وانهم جميعاً يكونون «أمة واحدة من دون الناس» وهذا التعريف للأمة هو الذي استقر بعد ذلك حين أصبحت إطاراً واسعاً تتعايش فيه الأديان والسلالات المختلفة.

ملاحظات عامة

لقد ذكرنا أن صحيفة المدينة لم تكن حدثاً منعزلاً عن سياق المنهج الإسلامي كما جاء في القرآن الكريم والسنة النبوية، وكما ظهر في سيرة الرسول في كل أطوارها، منذ حلف الفضول إلى الحديبية، إلى الحوار مع

اليهود والنصارى، وقد علق المستشرق لويس باسينيون في كتابه «كلمة الشرف» على معاهدة الرسول مع نصارى نجران في عام ٦٣٠ «خلال استقباله للوفد المسيحي عقد الرسول معهم عهداً التزم فيه بحماية سكان نجران وضواحيها، وحماية أشخاصهم وممتلكاتهم، وتعهد باحترام حريتهم في البقاء على دينهم وشعائرهم، مقابل بأن يعترفوا بنوع من السيادة السياسية للإسلام [١].

وقد تميزت صحيفة المدينة بأن جعلت الحقوق التي تضمنتها هبة من الله سبحانه وليست من أحد من البشر يمنن بها على الناس أو يستردها منهم حين يشاء، ودليل ذلك أن شخصية الرسول ﷺ نفسه لم يكن لها دور بارز سوى أنه المرجع والحكم عند النزاع، كما أن التحالف الذي أبرمته الصحيفة كان يدور كله حول فكرة الإيمان بالله، ومن هذا المصدر تأتي كل ضمانات العدل والحرية والمساواة والتكافل الاجتماعي.

لقد سبقت صحيفة المدينة أو جاءت بعدها محاولات لتأكيد بعض حقوق الإنسان وصون كرامته، وكبح شهوات طغيان السادة والحكام، مثل قانون حامورابي الأموري (القرن الثامن عشر قبل الميلاد) الذي قطع خطوات محمودة ـ ولا شك ـ نحو هذه الأهداف، غير أن عيوب ونواقص كثيرة قد ظهرت ولا تزال تظهر في هذا القانون، هو لم يصل كاملاً شأن صحيفة المدينة. كما أنه كان يحتم الإيمان بإله وثني واحد، ويقر قانون الثأر الفردي، ويجعل ملكية الأرض كلها لشخص الملك، ويسرف في إنزال العقوبة بما في ذلك بتر أعضاء المذنب وهو على قيد الحياة، وكذلك يجيز قتل الإبن بدل أبيه، خلافاً للقاعدة القرآنية «ولا تزر وازرة وزر أخرى».

---

(1) Louis Masignon "Paroledonne'e".

أما الوثيقة الأخرى البارزة التي تستحق المقارنة فهي وثيقة « الماجنا كارتا » التي قدمها الملك جون الإنجليزي (١٢١٥ للميلاد) تحت التهديد بالحرب الأهلية من جانب النبلاء، وأعاد إصدارها الملك هنري الثالث (١٢٢٥) حين دخل في حرب ضارية مع بابا الفاتيكان، وقد جاء في مقدمة الوثيقة التي أصدرها الملك هنري أنه «يقدمها هدبة إلى الله، والكنيسة، والنبلاء، والبارونات، وجميع رجاله» . لقد أدرك الملك أنه لا بد من إعطاء تنازلات إلى درجة السماح بانتخابات حرة، وتوزيع المناصب المدنية والكنيسة على البارونات[1] .

ومن الواضح أن روح الماجانا كارتا كانت موجهه لإرضاء النبلاء والبارونات، ولم تحقق بعض مصالح الشعب إلا بشكل غير مباشر . وقد نضيف أن الماجانا كارتا كانت موجهة لشعب واحد ولم تضع أسس لتعاون عالمي يجمع أدياناً وسلالات مختلفة كما كانت صحيفة المدينة .

وتختلف صحيفة المدينة عما سبقها أو لحق بها من الوثائق أنها تجعل حقوق الإنسان وواجباته مرادفة للإيمان مخالطة للعقيدة، وليست مجرد قانون تفرضه السلطة الحاكمة، ذلك أن مراعاة هذه الحقوق والواجبات هي سلوك عام يتناول علاقات الأفراد بعضهم ببعض، وعلاقاتهم مع أسرهم وأطفالهم والمجتمع بصورة عامة .

الإعلان العالمي لحقوق الإنسان

لقد مرت المسيرة البشرية نحو تأكيد حقوق الإنسان بمراحل كثيرة منها الثورة الأمريكية (١٧٧٦)، والثورة الفرنسية (١٧٨٩)، وكان آخر

(1) R. Thompson; An Essay on the Magna charta of King Jhon.

تلك المراحل هو الإعلان العالمي لحقوق الإنسان الذي صدر عن الأمم المتحدة في ١٠ ديسمبر ١٩٤٩م، ومن الإنصاف القول أن هذه المواثيق بما فيها قانون حامورابي أو الماجنا كارتا وغيرها قد شكلت علامات في تلك المسيرة، وعكست تطلعات الإنسان لاستكمال حريته، والحد من غائلة الظلم والاستعباد، وما دمنا قد أشرنا إلى أهم ملامح بعض تلك المحاولات، فقد يكون من المفيد لأغراض هذا البحث أن ننظر من قريب في الميثاق العالمي لحقوق الإنسان باعتباره أحدث تلك المراحل، والبيان الذي تعلو المطالبة بضرورة إعادة النظر فيه وتلافي ما يشمل عليه من النقائض، ومن دلائل الاهتمام بهذه الناحية، والتطلع العالمي للإفادة من المبادئ الإسلامية، الندوة التي عقدتها المندوبية السامية لحقوق الإنسان التابعة للأمم المتحدة بالتعاون مع منظمة المؤتمر الإسلامي في جنيف بتاريخ ٩ ـ ١٠ نوفمبر ١٩٩٨م بعنوان «إغناء الميثاق العالمي لحقوق الإنسان بالمبادئ الإسلامية»[(١)].

فإذا عاودنا دراسة الميثاق العالمي لحقوق الإنسان فسنجد هذه الملاحظات:

١ ـ لا يوجد في الميثاق العالمي أي إشارة للإيمان بالله باعتباره مصدراً للخير وعاملاً واقياً من الشر، يحكم إرادة الإنسان، ويسيطر على ميوله، وإنما نجد الميثاق يركز على المؤسسات والقوانين الزجرية، خلافاً لصحيفة المدينة التي اعتبرت الإيمان بالله هو المحور والضمان إلى جانب الشروط والضمانات الأخرى.

٢ ـ تظهر في صحيفة المدينة حقوق الأفراد والجماعات باعتبارها جزءاً من حقوق الله على العباد يثاب فاعلها ويعاقب تاركها، مما يكسب تلك

(١) تراجع ورقتي في تلك الندوة (حقوق ومسؤوليات الإنسان من وجهة نظر إسلامية)، جنيف ٩ ـ ١٠ نوفمبر ١٩٩٨م.

الحقوق صفة الواجبات الدينية، ويعطيها قداسة خاصة، ويجعلها واجبا مفروضاً من الخالق على عباده وليست هدية من أحد سواء كان حاكماً فرداً، أو منظمة دولية خلاف المواثيق التي أشرنا إليها بما فيها الميثاق العالمي لحقوق الإنسان.

٣ ـ ركز الميثاق العالمي لحقوق الإنسان على حقوق الفرد وأطنب فيها دون ذكر لمسؤولياته في إقامة المجتمع الإنساني الفاضل والعادل، مما يؤدي إلى ظهور طبقات مستهلكة مترفة تبحث عن تحقيق أكبر قدر من المصالح وأسباب الترف دون أن تعتاد على حمل المسؤولية والتفكير في سعادة الآخرين. ويلفت النظر أن صحيفة المدينة قد قرنت الحقوق بالواجبات.

٤ ـ لم يشر الميثاق العالمي لحقوق الإنسان إشارة واضحة إلى التعاون ضد الظلم والفساد والطغيان بل حمل إشارات للاعتراف باستعمار أجزاء من العالم، وافرد الولايات المتحدة بمعاملة خاصة (المادة ١٤ الفقرة ٢) خلافا لصحيفة المدينة التي تدور كلها حول التعاون على محاربة الظلم والفساد وحماية الضعيف، ولم تعط أي طرف ميزة خاصة.

٥ ـ لم تتدخل صحيفة المدينة في عقائد الأطراف التي أقرتها وحرصت على أن تؤكد أن كل فريق «على ربعته» أي تقاليده، ودينه، وعاداته، بينما نرى الميثاق العالمي لحقوق الإنسان يحشر أنفه حشراً متعسفاً في العقائد حين يتحدث عما أسماه حرية تغير الأديان (المادة ١٨).

٦ ـ في الوقت الذي ركزت فيه صحيفة المدينة على الأخلاق وقيم السلوك وفق شريعة الله، نجد الميثاق العالمي لحقوق الإنسان ينسى في ـ غمرة الحماس ـ لحقوق الإنسان هذه القيم، ولذلك يضع الأساس للزيجات غير الشرعية، والتوالد المنحرف (مادة ٢٥/ ٢).

وأخيراً، فان الملاحظ على الميثاق العالمي لحقوق الإنسان بالجملة، أنه صدر مباشرة عقب الحرب العالمية الثانية، وما خلفته من مرارات، وأحقاد، وما رافقها من إعلام منظم ضد شعوب وفئات معينة، فجاءت خلفية الميثاق تحمل هذه المشاعر، ولا تنظر نظرة متوازنة لجميع الشعوب والحضارات دون تمييز، ومن هنا نفهم دوافع الصيحات العالمية الواسعة بضرورة إعادة النظر في الميثاق ووضعه في صيغة جديدة تحقق التوازن المنشود، ونعتقد أن لدى المسلمين مبادئ سامية كمبادئ صحيفة المدينة يمكن أن تسهم في ميثاق جديد، وتقديم الأسس لبناء نظام عالمي متين مستقر يرتكز على مبادئ الإيمان والعدل، والمساواة، والتعاون بين بني البشر جميعاً.

بُعـــد الصحيفـــة

لقد استقرت روح صحيفة المدينة، وجاءت تثبيتاً للمؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، ونقلت القبائل العربية من ذكريات الصراع ومناخ الثأر إلى آفاق الدعوة العالمية الواسعة وإطار الأمة الواحدة. وكان عدد المنتسبين إليها في ازدياد كلما دخلت القبائل العربية المشركة في دين الله. والتزمت بشروطها ومبادئها، وقد شملت الصحيفة بعد ذلك قبائل الجزيرة العربية بعد فتح مكة وانهيار كيانات الشرك[1].

ولقد ذكرنا أن روح الصحيفة بقيت ترافق جيوش الإسلام وتحكم تعاملها مع الشعوب التي دخلت هذا التحالف الرباني العالمي.

ومع أن روح الصحيفة استمرت تحكم العلاقات بين أهل المدينة إلا أن أحد أطرافها قد نقضها وتنكر لها، وأعلن بالقول والعمل خروجه عليها،

---

(1) Mohammed at Medina W. Montomery WATT.

وهذا الطرف هو فريق كبير من اليهود، مما أثار الشك لدى كثير من المؤرخين عما إذا كان هؤلاء اليهود قد أخلصوا لعهدهم من البداية أم أن انتسابهم كان مجرد مناورة «يهودية» لمجاراة الحلف ثم تدميره من الداخل ؟

لم ينتظر اليهود من البداية نظرة ارتياح للدين الجديد، وبالرغم من أن نفراً من أحبارهم وعلمائهم قد رأوا في ظهوره تحقيق بشارة التوراة ونصحوا قومهم للقبول به، إلا أن الغالبية رفضت النصيحة بدافع الغيرة والحسد، ومجاراة الاقتناع الزائف انهم شعب الله المختار وصفوة خلقه وأن أنبياءه يجب أن يكونوا من بني إسرائيل .

وحين استقر الرسول في المدينة وضعوا خطتهم في الكيد له على اسلوبين، المجاراة الظاهرية، والتآمر في الخفاء، فأخذوا يكاتبون قريشاً ويحرضونها على حربه، ويعدونها بالدعم والمساعدة، ولم يخفوا فرحهم حين وصل جيش قريش الى ماء بدر، وظنوا أن نهاية الاسلام قد اقتربت، وحين اسفرت المعركة عن انتصار المسلمين ظهر عليهم الحزن والغم، ويذكر الواقدي، وابن اسحق أن عدة معاهدات قد ابرمت بين الرسول وبعض قبائل اليهود بأن لا ينصروا عليه أحداً الا ان انهم كانوا ينقضون العهد في كل مرة كما سجله القرآن الكريم : ﴿ **أَوَ كُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُم بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يُؤْمِنُونَ** ﴿١٠٠﴾ ﴾ (البقرة، ١٠٠) . وقد توترت العلاقات بسبب الاستفزازات اليهودية حتى أصبحت أقل حادثة كافية لاشعال الحرب، ومن ذلك ما رواه ابن هشام وغيره أن يهودياً من بني قينقاع تعرض بالأذى لامرأة مسلمة وجرح حياءها في السوق، وكانت هذه الحادثة في جذور الحملة على بني قينقاع واجلاتهم من المدينة . وكذلك كان الأمر بالنسبة لقرى يهودية من شركاء الصحيفة منهم خيبر، وبنو النضير، وهم من الذين أعلنوا عداوتهم للرسول ﷺ ونقضوا عهدهم معه .

ولقد قاد اليهود حملة «اعلامية» ضارية على الرسول وأصحابه مادتها السخرية، والكذب، والتبشير، واسلحتها الخطابة، والشعر، والاشاعات، وكان يتزعم هذه الحملة الشاعر كعب بن الأشرف الذي تجرأ على سب الرسول في دعوته، وشين بالشريفات من المسلمات ومنهن أم الفضل زوج العباس بن عبد المطلب، مما أثار حمية الشباب من المسلمين فاستأذنوا الرسول في قتله فأذن لهم بذلك. ولم يكن قتل كعب «ارهابا» واغتيالاً كما يزعم بعض المستشرقين وانما كان غارة عسكرية كتلك التي يقوم بها المغاوير وراء خطوط العدو لقتل القادة أو تدمير المنشآت.

وقد ظهرت يد التحريض اليهودية بوضوح غداة معركة أحد ثم الخندق، ويروي ابن هشام أن وفدا من اليهود «خرجوا حتى قدموا على قريش فدعوهم إلى حرب رسول الله ﷺ، وقالوا: إننا سنكون معكم حتى نستأصله»، وفي ذلك اللقاء سألت قريش الوفد اليهودي عن الإسلام، وهل هو خير من دين قريش، وكان جواب اليهود: بل الوثنية والأصنام خير من دين محمد، وإلى ذلك يشير القرآن الكريم: ﴿ **أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَٰؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا** ﴿٥١﴾ ﴾ (النساء، ٥١)، وقام هذا الوفد بإقناع قبائل أخرى لتنضم إلى قريش، وقد بلغ هذا النشاط اليهودي المعادي اسماع النبي ﷺ وربما لم يكن اصحابه على علم به حتى أن احدهم اقترح عليه الاستعانة باليهود في أحد، لكن النبي ﷺ اجابه قائلا: «ما لنا بهم من حاجة».

وقد حاول الرسول جهده أن يثني اليهود عن نقض عهودهم معه، وأن يحذرهم من مغبة ذلك، ولكنهم لم يرعووا وغلبتهم نوازع الحقد والحسد، ومما يستحق التنويه به أن احد رسل النبي الى اليهود في تلك المرحلة

كان سعد بن معاذ سيد الأوس، واحد حلفاء اليهود البارزين ممن شهدوا عقد الصحيفة، وقد وقع ضحية الكيد اليهودي، وجرح جراحا مميتة يوم الخندق، وكان من أقواله حينذاك: «اللهم لا تمتني حتى تقر عيني من بني قريظة» في السنة الخامسة.

وقد بلغ التآمر اليهودي ذروته حين هم رجال من يهود بني النضير بقتلهﷺ فسار اليهم بجيشه وحاصرهم حتى استسلموا، فسمح لهم بالخروج الى خيبر، لكنهم بقوا على صلة بقريش يمدونها بالمال ويحرضونها على حرب الرسول، مما أكد أن اجلاء اليهود من مكان الى مكان آخر في الجزيرة لا يفعل شيئاً سوى أن يطيل أمد كيدهم للاسلام، ويمنحهم مزيداً من الفرص لتحريض القبائل وحشدها لمحاربة الدعوة. وكان مجمل هذه الظروف هي التي أدت لعقوبة بني قريظة على الصورة التي تمت بها[1].

انتهت غزوة الخندق في شوال من العام الخامس للهجرة النبوية، ورجع جيش المشركين بعد أن عجز عن اقتحام المدينة وهبت عليهم عواصف عاتية أعمت بصائرهم، وقلبت خيامهم، وكان لا بد من عقاب صارم لاولئك الذين نقضوا العهد، وضربوا الصحيفة عرض الحائط، وأغروا غيرهم بالخروج عليها، على صورة هددت الدعوة والدولة الوليدة في أساسها، وكانت قلاع بني قريظة هي مركز التآمر، وقاعدة الدعم للجيش المشرك الغازي. وكان بقاء هذه القلعة الحصينة المقاومة نذيراً باستمرار الخطر، وسيفاً مصلتاً في ظهر الدولة الاسلامية. وما أن غابت فلول جيش قريش حتى صاح الرسول في أصحابه: من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يصلين العصر الا في بني قريظة.

---

(1) Mohammed at Medina W. Montomery Watt.

وبعد حصار محكم استمر خمسة وعشرين يوماً قذف الله في قلوبهم الرعب وطلبوا الاستسلام دون قيد ولا شرط، وقد اختار اليهود حكما في مصيرهم هو سعد بن معاذ حليفهم وشريكهم في صحيفة المدينة، ولم يكن غريباً أن يصدر فيهم سعد الحكم الذي انطوت عليه الصحيفة حيث قالت بوضوح :

«وانه من تبعنا من يهود فإن له النصر، وأن سلم المؤمنين واحدة، ولا يسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله» الى أن تقول : «وانه لا يحل لمؤمن أقر بما في هذه الصحيفة، وآمن بالله واليوم الآخر، أن ينصر محدثاً أو يؤويه، وأنه من نصره أو آواه، فان عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة»، ثم تكرر الوثيقة التحذير « الا من ظلم وأثم فلا يهلك إلا نفسه وأهل بيته. ولقد أصدر سعد حكمه الصارم بقتل المحاربين، وسبي النساء والأطفال.

كانت غزوة بني قريظة، واستسلامها للرسول، والعقوبة التي فرضها سعد بن معاذ عليها، هي ذروة المعركة مع اليهود في المدينة، ويقع في الخطأ كثير من المستشرقين الذين كتبوا عن بني قريظة حين يقيسون أحداثها بالمقاييس المعاصرة وبمعزل عن مجمل الظروف التي وقعت فيها، وضخامة الجريمة، وتقاليد الزمن السائدة في الحرب والسلم، وأكثر المستشرقين الذين كتبوا في القضية، لم يكتبوا من منطلق علمي محايد، ولكن بروح عدائية متحيزة، تخترع المثالب والعيوب، وتخرج الحوادث من سياقها التاريخي، حتى تصل لهدفها المبيت في النيل من الإسلام ونبيه. ومن ذلك ما ذهب إليه المستشرق اليهودي هيرشبرج حين زعم أن محمداً قتل اليهود لأنهم رفضوا اعتناق الإسلام[1] ومن يقرأ صحيفة المدينة يلاحظ

---

(1) H.Z. Hirschberg; Israel among the Arabs.

أن الوثيقة اعترفت لليهود بدينهم وتعهدت بالمحافظة عليه وحمايته، وذلك يتفق مع النظرة الإسلامية العامة لأهل الكتاب واليهود بصفة خاصة حين دعتهم للتمسك بالمبادئ الصحيحة للتوراة ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ .. ﴿٦٨﴾ ﴾ (المائدة، ٦٨).

لقد كانت عقوبة بني قريظة تنفيذا أمينا لشروط صحيفة المدينة، إزاء خيانة واضحة، ونكث صارخ للعهود التي اشتملت عليها، مما عرض مجتمع الصحيفة لأخطر الشرور. كما أن أمثال هذه العقوبات كانت رائجة بمنطق العصر، وكانت القبائل العربية تمارسه ضد بعضها البعض في حروبها الداخلية، كما أن من والواضح أن أحكام التوراة كانت هي السائدة بين اليهود في مجتمع المدينة، وكانت قريظة بالذات هي سدنة التوراة والأمينة عليها، ولذلك كانت تلقب عند اليهود Kahinan « «أو الكهنية، وقد كان لذلك تأثيره في التقاليد القبلية، ومن هنا نفهم ميل سعد بن معاذ لتطبيق « قانون اللعان «الذي اشتملت عليه التوراة، كما يقول مارسل بواسارد في كتابه « إنسانية الإسلام«[(1)]وهو ما ذهب إليه مستشرق منصف هو الكاتب الألماني رودي باريت إذ يقول: أما بالنسبة لمذبحة بني قريظة، فيجب أن نذكر أن تقاليد الحرب حينذاك كانت اكثر قسوة مما اعتدنا عليه بعد معاهدة جنيف، ولذلك فيجب أن نتعامل معها وفقا لمقاييس ذلك الزمن»[(2)]على أن

(١) في إصحاح التثنية من العهد القديم مايلي: Loid' Antheme ينص قانون اللعان حين تقترب من مدينة لكي تحاربها استدعها للصلح، فإن اجابتك إلى الصلح وفتحت لكل فكل الشعب الموجود فيها يكون لك للتسخير ويستبعد لك، وإن لم تسالمك بل عملت معك حرباً فحاصرها، وإذا دفعها الرب الهك، إلى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف، وإما النساء والأطفال والبهائم وكل ما في المدينة من الغنائم فهي لك.

(2) Muhammed und dder Koran; Rudi Paret.

عقوبة بني قريظة لم تكن موجهة لليهود أو للدين اليهودي، وإنما كانت حملة عسكرية محكومة بظروفها الخاصة كما تقول الموسوعة اليهودية نفسها، وقد أورد البروفسور محمد حميد الله في كتابه «رسول الإسلام» أسماء عدد كبير من القرى العربية التي ظل اليهود يسكنونها بعد الحروب مع يهود المدينة، كما أورد رسائل للنبي ﷺ لبعض عماله يوصيهم خيرا بما عندهم من اليهود، ومن أدلة ذلك أن النبي ﷺ قد اسلم الروح ودرعه مرهونة عند يهودي في دين[1]، وفي خلافة عمر جعل رضي الله عنه ليهودي عجوز نصيباً في بيت مال المسلمين وهو يقول: «أخذنا منه الجزية شابا، ونتركه يتكفف الناس شيخاً».

لقد بقيت علاقات المسلمين مع أهل الأديان الأخرى وخصوصاً مع اليهود باعتبارهم من أهل الكتاب قائمة وفق مبادئ صحيفة المدينة وعلى امتداد تاريخ الدولة الإسلامية طالما أعانوا على منع الظلم والعدوان والفساد وتحاشوا التحريض أو التآمر. وفي الحالات القليلة التي كان الحكام يتجاوزون حدود الشريعة شأنهم في كل زمان كانوا يجدون من العلماء من يذكرهم بها ويحاكمهم بمقاييسها. وقد كتب المستشرق اليهودي برنارد لويس - في كتابه «يهود في بلاد الإسلام» وهو كاتب لا يعرف بمودته للإسلام كتب يقول: في الحقيقة، فان العلاقات بين الدولة الإسلامية، والطوائف الدينية كانت محكومة بقانون ونظام، فأهل الذمة كانوا يخضعون لعلاقة تعاقدية محددة.

(1) Le prophet De L'islam, Sa 1/ie, son Oeuver; Muhammad Hamidullah.

إن القرآن , والحديث ، أكدا بحزم حرمة المعاهدات ، ودعيا صراحة لاحترام الحرية والحياه ، والممتلكات للمعاهدين . وقد اعتبر بعض الفقهاء منذ صدر الإسلام أهل الذمة من المعاهدين ، وعلى سبيل المثال فان الإمام الاوزاعي المتوفى عام ٧٧٤ هـ ، قد لام حاكم لبنان الذي حاول إخضاع ثورة مسيحية في جبل لبنان ، ولجأ إلى وسائل قاسية منها إجلاء سكان مسيحيين عن قراهم لأغراض عسكرية ، وكتب إليه قائلاً : لقد قتلت أناساً وهجرت آخرين ، فكيف يجوز لك أن تعاقب الكل بجريمة البعض ، فتحرمهم من مساكنهم وممتلكاتهم والله تعالى يقول : ﴿ .. **وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ** ... ﴿١٦٤﴾ ﴾ (الأنعام ، ١٦٤) .

إن خير نصيحة نقدمها إليك هي أن تذكر قول النبي ﷺ : «ألا من ظلم معاهداً أو انتقصه أو كلفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفس فأنا حجيجه يوم القيامة»[1] .

وفي المرحلة الراهنة حين تشتد المطالبة بمراجعة الإعلان العالمي لحقوق الإنسان بعد أن تجاوز الظروف الدولية الشاذة التي أدت إلى إصداره ، والأمل في بناء نظام عالمي جديد يقوم على الإيمان ، والعدل ، والمساواة ، فان صحيفة المدينة بمبادئها الإنسانية العالمية تصلح لتكون مصدراً مهماً لإلهام هذه المساعي والتطلعات ، وبوسع المسلمين أن يتقدموا بها إلى المنابر العالمية كوثيقة تاريخية سبقت عصرها ، وأمدت المسيرة العالمية بالمبادئ والقيم النبيلة عبر قرون طويلة ، ولا تزال الإنسانية بحاجة إليها وهي تبحث عن السلام والاستقرار .

---

(١) أبو داود ، ٣/ ٤٣٧ برقم ٣٠٥٢ .